



الكتاب بالمغرب والاندلس

إسهام في دراسة انعكاسات ثقافة الكتاب على المجتمع

من القرن ٦هـ / ١٢م إلى نهاية القرن ٨هـ / ١٤م



عرض

د. أحمد الصديقي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الرشيدية - المملكة المغربية



أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب والاندلس

إعداد: أحمد الصديقي

إشراف: أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة مولاي إسماعيل (المغرب) ٢٠١١

عدد الصفحات: ٤٧٩

دوافع البحث وأهميته

سعت هذه الدراسة إلى تناول مختلف آثار ثقافة الكتاب على المجتمع المغربي الأندلسي خلال الفترة الممتدة من القرن ٦هـ / ١٢م إلى نهاية القرن ٨هـ / ١٤م، ونظرًا لكون الكتاب وعاء للثقافة بما يحمله من معلومات وأفكار، فإنه ظل وسيلة للتواصل بين المؤلف والقارئ؛ وتحكمت في هذا التواصل عدة اعتبارات معرفية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، تفاوتت وثيرة حركته بين دوافع التحفيز والتنشيط من جهة، ومحاولة الإيابة من جهة ثانية. ولكون الكتاب يجمع بين البعدين المادي/ الاقتصادي والفكري/ المعنوي، فإننا حاولنا النظر إليه من زاويتين: الأولى ترتبط بكونه منتجًا يطرأ عليه ما يطرأ على أغلب المواد الاقتصادية السلعية المعروضة في السوق من عمليات التصنيع والاتجار وخضوع مواده الخام للعرض والطلب، وذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة. والثانية، وتشكل العمود الفقري للموضوع، من حيث المحتوى والمضمون المعرفي الذي يمنح الكتاب قيمته المعنوية وسلطته الرمزية والثقافية، ويؤشر إلى مستوى ردود الفعل الاجتماعية التي تباينت بين القبول أو الإعراض، مع ما يمكن أن يخلفه ذلك من مواقف اتجاه شخصية المؤلف بحكم العلاقة الجدلية والطبيعية التي تربط بين الكتاب ومؤلفه.

يظهر إذن أن الكتاب بوصفه آلية للتواصل الثقافي والمعرفي أصبح وسيلة هامة في نشر ثقافة القراءة، إلا أن انسياب وانتشار هذه الثقافة داخل المجتمع المغربي الأندلسي إبان فترة الدراسة واجهتها صعوبات وعراقيل عديدة كانت أحيانًا بمثابة ميثبات لفعلي التأليف والقراءة، بينما كانت في أحيان أخرى الدافع والمحفز الكبير للإقبال عليها. وما من شك في: أن هذه الإشارات تعبر عن عمق تأثير الكتاب في تشكل العقلية المغربية الأندلسية سواء من حيث كونه وسيلة للتواصل، أو كونه وعاء لأفكار ورؤى يختلف حولها القراء، فقد يتقبلها البعض وقد يعرض عنها أو يرفضها البعض الآخر، مما خلق نوعًا من الصراع والتنافس بين "مشاريع" فكرية وثقافية. ويبرز في أحيان كثيرة هذا الصراع مغلًا بطابع سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو فكري أو مذهبي، كما يتجلى في أشكال وقضايا همت تاريخ المغرب والاندلس خلال الفترة مدار البحث، كما هو الشأن بالنسبة لكتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ /

١١١١م)، وكتابات أبي الوليد بن رشد الحفيد (ت. ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) التي كادت أن تودي بحياته حسب تعبير عبد الواحد المراكشي. ومن ثم تتضح الأهمية التاريخية والراهنية لموضوع الدراسة، لأنها تهدف إلى الكشف عن تطور ثقافة الكتاب بالمغرب والاندلس خلال الفترة المدروسة، فضلاً عن أبعادها الاجتماعية والذهنية التي تروم إبراز علاقة الظاهرة بالمحيط الاجتماعي ومدى تأثيره وتأثره بها، مما جعل الأطروحة تثير أبعادًا متداخلة اجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية وسياسية وذهنية ومذهبية، مع حرصنا على عدم تضخيم أحد جوانب التأثير المتبادلة، خاصة المتعلقة بالقضايا الثقافية والسياسية لكونهما أحد مظاهر التحول الاجتماعي وليست هي كل هذا التحول والتغير.

كما تشير تلك الرؤية إلى عمق التأثير الذي قام به الكتاب في إغناء الرصيد الثقافي والفكري للمغاربة والأندلسيين، من خلال أبعاده التواصلية، التي استطاعت تجاوز محدودية المكان أو تعاقب الزمن، فضلاً عن مظاهر تأثيره الاقتصادية والاجتماعية ببروز حرفة جديدة ظهرت بزوغ مادة الورق/ الكاغد بالمنطقة، وأسهمت في تداول الكتاب على أوسع نطاق بمجالات معينة خصصت للغرض ذاته، فانتعشت حرفة الوراقة وأسواق الكتب، وانعكست بأشكال متباينة على مختلف الفئات الاجتماعية التي امتهنتها.

وإذا كان الجانب الثقافي أحد المداخل الطبيعية والأساسية في معالجة التحولات الاجتماعية، فإن دراسة انعكاسات قراءة الكتب في بعدها التاريخي تمثل لبنة ضرورية في الإلمام بتاريخ المنطقة عموماً، لاسيما وأن قبول المجتمع الذي ركن زمنًا طويلاً لثقافة المشافهة بدأ يستسيغ التأقلم أيضاً مع ثقافة الكتابة والقراءة. كل ذلك يطرح أكثر من علامة استفهام حول الكيفية والطريقة وردود الفعل المتباينة والمدى الزمني الذي تطلبه انسياب هذه الأخيرة داخل المجتمع، إضافة إلى ما أفرزته من تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية ومذهبية.

وبالرغم من صعوبة الإمساك بالقضايا الأساسية والجوهرية الميزة لظاهرة القراءة نظراً لطبيعتها الخاصة والمتماثلة في كونها نسقا تربوياً يتميز بالحرية وحب الاطلاع والرغبة في تحصيل المعارف والارتقاء بالمدارك من جهة، ثم لكونها لم تنظم خلال فترة الدراسة



بقوة في الأندلس، ولا أدل على ذلك "مشيخة الغزاة" بالأندلس، التي توارثتها إحدى الأسر المغربية.

الدراسة المصدرة

استقينا معلومات هذه الدراسة من مصادر متنوعة، ومنها نذكر كتب مصادر التاريخ الحولي التي أسهمت في فك بعض الرموز المتصلة بثقافة الكتاب لدى الخاصة بالأمرء والخلفاء وحاشيتهم، مع ما أفرزته هذه الثقافة من سلوك ومواقف مختلفة اتجاه الكتاب مادة وفكر؛ ويأتي على رأس هذه المصنفات "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي (كان حيًا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٠م)، و"المعجب" لعبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)، فضلاً عن "الأنيس المطرب" و"الذخيرة السنية" لابن أبي زرع الفاسي (ت ٧٤١هـ / ١٣٤١م)، دون أن نغفل قيمة تاريخ "العبر" وكتاب "المقدمة" لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، لاسيما المصنف الأخير الذي لا تخفى أهميته في بلورة جملة من التفسيرات وحل بعض الإشكالات الأساسية في البحث.

ومن جهتها كشفت كتب الأحكام والفقه والنوازل عن طبيعة العلاقة البيئية بين الكتاب والمجتمع، سواء من خلال بعض الفتاوى أو المواقف الاجتماعية حيال بعض المحن التي تعرض لها الكتاب، مع ما عكسته هذه المصادر من مظاهر وردود فعل مختلفة اتجاه بعض الأحداث التي تركزت حول الكتاب؛ وكان أبرز هذه المصنفات "فتاوى ابن رشد" لابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، و"أجوبة" ابن ورد الأندلسي (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٦م)، و"نوازل" أحمد بن سعيد بن بشتغير (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م) فضلاً عن "الدر النثر على أجوبة أبي الحسن الصغير" لإبراهيم بن هلال (ت ٧١٩هـ / ١٣١٩م)، و"جامع مسائل الأحكام" لأبي القاسم البرزلي (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م)، و"المعيار المغرب" لأبي العباس الونشريسي (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م).

كما أسعفتنا كتب البدع في تتبع بعض الظواهر المستحدثة ذات الصلة بالكتاب، والتي خلفت ردود فقهية مختلفة، ويأتي على رأس هذه المصنفات كتاب "المدخل" لأبي عبد الله بن الحاج (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م). وبالمثل ساعدتنا كتب الحسبة في ملاحقة وضعية صناعة الكتاب ضمن التحولات الاقتصادية بالمجال المدرس، سواء في الكشف عن طبيعتها التنظيمية أو إسداد الستار عن الآثار الضريبية على هذه الصناعة، فضلاً عما خلفته هذه التحولات من انعكاسات متباينة على الصناع والحرفيين والأجراء الذين امتنوا هذه الحرفة؛ وتبرز ضمن هذه المصنفات "رسائل" ابن عبدون (من أهل القرن ٥هـ / ١١م)، والسقطي (من أهل القرن ٦هـ / ١٢م)، و"تحفة الناظر" لأبي عبد الله بن سعيد العقباني (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م).

ومن جهة أخرى استفدنا من مصادر الجغرافيا والرحلات في معرفة حركة الكتاب ضمن المجال المغربي الأندلسي، مع تتبع ديناميته من المشرق إلى المغرب أو العكس، فضلاً عن دور هذه المصنفات في كشف النقاب عن بعض المواد الأولية لصناعة الكتاب، مع إبراز أدوار أسواق الكتب والتوزيع المجالي للوراقين، وسبل البيع والشراء وغيرهما من المعاملات الاقتصادية التي ارتبطت بالموضوع؛ ويأتي على رأس هذه المؤلفات "أحسن التقاسيم" للمقدسي (ت ٣٨٠هـ / ٩٩١م)، و"نزهة المشتاق" للإدرسي (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م)، و"الاستبصار" لمؤلف مجهول (من أهل القرن ٦هـ / ١٢م)،

في إطار مؤسسات ثقافية أو اجتماعية تشرف عليها السلطة الحاكمة من جهة أخرى، فإنه ترتب عن الظاهرة ميلاد سلوكات ومواقف مختلفة وتصرفات متباينة، قد تسقطنا - في غياب التسليح بالنصوص المصدرة - في مسألة تعميم بعض القضايا التي قد تكون مجرد أحداث معزولة واستثنائية وجعلها قاعدة عامة أو قد تعكس هذه المسألة.

منهج الدراسة

بالنظر إلى طبيعة الموضوع فقد أثرتنا تجاوز أحادية التفسير، فاستندنا تارة إلى المنهج الوصفي، باعتباره أسلوباً لتحليل المحتوى من خلال استقراء العلاقة بين الظاهرة وأثرها، وربط هذا كله بالنظم السياسية والإدارية للدولة، واعتمدنا تارة أخرى الاستقراء والاستنباط والتحليل والتأويل للوقائع، والمقارنة الزمنية والمجالية التي فرضت علينا أحياناً تجاوز مجال وزمن فترة الدراسة لاستكناه بعض القواعد المتحكم في تحولات الظاهرة المدروسة. دون إغفال المنهج الكمي الإحصائي الذي تمكننا بفضل من تحويل بعض النصوص والأرقام إلى جداول ومبيانات ساعدتنا على استخلاص التوجهات العامة للتأليف والقراءة زمن البحث. ولم يكن بالإمكان تجاهل نتائج بعض المقاربات إما ذات الطبيعة النفسية أو السوسولوجية أو الأنثروبولوجية، ما دامت غايتها رصد مظاهر وتجليات التعبير الفردي والجماعي في "الثقافة الكتابية"، والتي تمكن من سبر دور ثقافة الكتاب في تشكيل الذهنية المغربية الأندلسية، وعلاقة ذلك بالتغيرات والتحولات التي عرفها المجتمع المغربي الأندلسي خلال الفترة مدار الدراسة.

وحيث إن البحث التاريخي يقوم على أساس تحديد الزمن والمكان، فإن زمن هذه الدراسة يشمل الفترة الممتدة من بداية القرن ٦هـ / ١٢م إلى نهاية القرن ٨هـ / ١٤م؛ وعلى الرغم من طول المسافة الزمنية التي يفرضها تتبع تطور موقف المجتمع من القراءة، فقد انصب هدفنا على ضبط القواعد الجمعية التي أسست لثقافة الكتاب بالمجال المدرس، وعلاقتها بتموجات ومنحنيات التحولات والمتغيرات المختلفة التي شهدتها المنطقة، مع الأخذ بعين الاعتبار طبيعة التغيرات الاجتماعية والثقافية والذهنية التي تتسم بالبطء، على عكس الأحداث السياسية التي تتميز بالتداول والتغير السريع.

أما المجال فيتسع لبلاد المغرب والأندلس، نظرًا لتحقيق الوحدة السياسية بين العدوتين منذ عهد المرابطين الذين أحدثوا تحولاً في مصير الجناح الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط؛ إذ أضحت الأندلس ولاية تابعة للمغرب بعد ما كان هذا الأخير يدار من قرطبة الأموية؛ فبتوحيد الدولة المرابطية للمغرب والأندلس، أصبحا وطنًا واحدًا، يتبادل سكانه المصالح والمنافع، فسكن بعضهم إلى جوار بعض، واتصلوا بصفة مجدية، في جميع مناحي الحياة، فحصل امتزاج في الدم، وانصهار جنسي بين سكانهما.

ونتيجة لذلك تحققت الوحدة المذهبية التي كان للكتاب أثر جلي فيها؛ فسادت كتب المذهب المالكي زمن الدولة المرابطية والمرينية، وأثرت العقيدة التومرتية في المصنفات التي انتشرت بالمغرب والأندلس خلال العهد الموحيدي. وبخصوص لفظ "المجتمع المغربي الأندلسي" الوارد في الأطروحة؛ فإننا نعتبر أن الأمر يتعلق بمجتمع واحد؛ فإلى حدود نهاية القرن ٨هـ / ١٤م كان التأثير المبرني حاضرًا



موضوع الكتاب يعد موضوعاً راهنياً، وذلك بما يثيره من قضايا مختلفة تشغل بال الدارسين والمربين، بفعل مكانته في إطار التنمية البشرية الفعالة، الأمر الذي يبرر عقد مجموعة من التظاهرات الثقافية التي تهتم بموضوع الكتاب والقراءة مثل معرض الكتاب الدولي السنوي بالدار البيضاء، تعويلاً على الكتاب - بكل أشكاله- لتكوين مجتمع قارئ، مؤهل لمواجهة التحديات الراهنة والمستقبلية، في إطار المجتمع الكوني.

فصول الأطروحة

انطلاقاً مما قدر لنا الاطلاع عليه من مادة مصدرية واستثنائية بالدراسات الحديثة حول الموضوع فقد حتم ذلك علينا تقسيم الأطروحة إلى ثلاث مباحث كبرى، الأول خُصص لأبعاد الكتاب الاقتصادية والمادية، وتناول المبحث الثاني انعكاسات الكتاب الاجتماعية، بينما عالج الثالث والأخير الآثار الذهنية لثقافة الكتاب على المجتمع المغربي الأندلسي خلال الفترة مدار الدراسة. وقدّمنا العمل بمقدمة تناولنا فيها التصور العام للموضوع ومنهج البحث، مع محاولة نقدية للمصادر والدراسات المعتمدة. دون أن نغفل فصلاً تمهيدياً حول الإطارين الشرعي والتاريخي لثقافة قراءة الكتب في التراث الإسلامي، مع التأصيل لبعض المفاهيم الأساسية والمحورية في الأطروحة. وخلصنا إلى خاتمة عامة أدرجنا فيها مجمل الخلاصات التي تم التوصل إليها. وذيلنا الدراسة بملاحق وقائمة للمصادر والمراجع.

خاتمة

أسفرت الدراسة عن مجموعة من الاستنتاجات تمثلت في تظافر جملة من البواعث التي أسهمت في تهيئ أرضية مناسبة لصناعة الوراقة، تباينت وثيرة ديناميتها بين البطء والنكوص أحياناً وبين الحركة والقوة أحياناً أخرى، إذ ارتبطت حركيتها بعاملين أساسيين: الأمن وتدخل الدولة، فكلما توفر الأمن ازداد إقبال الناس على العناية بموارد الفكر والقراءة، فارتفع نتيجة لذلك مستوى الطلب على صناعة الكتب وقراءتها، وبالمقابل كلما قل الأمن وكثرت الاضطرابات والفتن تأثرت حرفة الوراقة كباقي الحرف الكمالية بنضوب وشح المواد الأولية، وتراجع الإقبال على المنتج الورقي لانشغال الكيانات السياسية في تثبيت سلطتها، واهتمام أغلب الفئات الاجتماعية بشؤونها اليومية الملحة وتوفير أمنها الغذائي. وأبان التحليل أن مسألة الاهتمام بمجال الفكر والثقافة ظلت رهينة بفترات الأمن العام، فضلاً عن تدخل الدولة المباشر في أحيان كثيرة لتشجيع هذا الكتاب أو مصادرة ذاك، وذلك حسب ما يتوافق مع مصالحها ومشروعها السياسي.

وبالمثل كشف البحث أن الوضعية الجديدة التي شهدتها المغرب والأندلس، خاصة في فترات "الأمن والاستقرار" أفضت إلى خلق اهتمام كبير بالكتابة والقراءة والتأليف. واتضح ما كان للوراقين من إسهام حضاري بخبرتهم الحرفية ومستوياتهم العلمية والمعرفية واحتكاكهم اليومي مع العلماء والطلبة في نشر المعرفة وثقافة العناية بالمقروء والمدون، ولا شك أن دكاكينهم التي كانوا يعرضون فيها كتبهم لعبت أدواراً طلائعية في تنوير العوام، وتوسيع مجال البحث وتطعيم المعارف في مختلف الفروع والتخصصات.

و"رحلة ابن جبير" (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، ورحلة العبدري التي قام بها سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م المسماة "الرحلة المغربية"، ورحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) الموسومة بـ"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، و"وصف إفريقيا" للحسن الوزان (ت ٩٥٧هـ / ١٥٤٩م).

كما أسهمت كتب التصوف والمناقب في لفت انتباهنا لتطور العلاقة بين الكتاب وبعض المكونات الاجتماعية، مع ما كان يخلفه ذلك من آثار ثقافية وذهنية، نذكر منها "التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، و"المستفاد" لابن عبد الكريم التميمي (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ / ١٢٠٦م)، و"المقصد الشريف" لعبد الحق البادسي (كان حياً سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م)، و"السلسل العذب والمنهل الأحلى" لأبي بكر الحضرمي (من أهل القرن ٨هـ / ١٤م)، و"المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" لمحمد بن مرزوق الخطيب (ت ٧٨١هـ / ١٣٧٩م)، و"أنس الفقير وعز الحقيّر" لابن قنفذ القسنطيني (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م)، و"شفاء السائل لتهذيب المسائل" لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، و"قواعد التصوف" لأحمد زروق (ت ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م)،

وما من شك؛ في أن كتب التراجم والطبقات والسير والفهارس شكلت بالنسبة للبحث مصدراً مهماً، فقد أسهمت في كشف طبيعة العلاقة التي جمعت بين الكتاب والكثير من المكونات الاجتماعية من العلماء والرقيق والمرأة وأهل الذمة في مختلف المجالات المعرفية، فضلاً عن دور هذه المصنفات في إبراز قيمة الكتاب في مناهج التدريس؛ ونذكر منها كتاب "التكملة لكتاب الصلة" لابن الأبار (ت ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م)، و"الذيل والتكملة" لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م)، و"جذوة الاقتباس" لابن القاضي (ت ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م)، و"نفح الطيب" لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م)، وفي مجال الفهارس نذكر "فهرسة" أبي الخير الإشبيلي (ت ٤٩٨ أو ٤٩٩هـ / ١١٠٥م)، و"الغنية" لأبي الفضل عياض (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م)، و"فهرس ابن عطية" لأبي محمد عبد الحق بن عطية (ت. ما بين ٥٤١ و ٥٤٦هـ / ١١٤٦ و ١١٥١م).

وفي الإطار ذاته أسهمت كتب الأمثال الشعبية في الغوص في التمثلات الشعبية التي خلفتها ثقافة الكتاب، ونذكر منها "ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، (أمثال العوام في الأندلس)" للزجالي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م)، و"المستطرف في كل فن مستظرف" للأبشيبي (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م). كما لم نقل من أهمية كتب الموسوعات والمعاجم اللغوية في الانفتاح على تتبع معاني بعض المصطلحات المركزية في البحث، واستخلاص دلالاتها، للتعرف على العوامل المؤثرة في تطورها، ونذكر منها على الأخص "لسان العرب" لابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م).

وإذا كنا لا ننكر دور بعض الدراسات - السابقة الذكر- في إلقاء الضوء على بعض الزوايا المنسية من الموضوع، مما يجعلها ذات أهمية بالغة في التحسيس والتنبيه بأهميته، دون أن تجعله جوهراً للبحث والدراسة، فإن ذلك يجعل موضوعنا إضافة لحلقة مفقودة ضمن التاريخ الاجتماعي والذهني، الذي يحكم طبيعته المتشعبة يطرح مجموعة من القضايا المثيرة للاهتمام والمتابعة، لاسيما وأن



الخاصة، فوسعت من دائرة متعاطفها من القراء، من مختلف المكونات الاجتماعية، لتوسيع دائرة الدعم الشعبي حول هذا المشروع المجتمعي أو ذاك، رغم المثبطات والعراقيل الذاتية والموضوعية.

ومن جهة أخرى: وبعد تتبع علاقة مختلف المكونات الاجتماعية بالكتاب اتضح انفتاح أغلبها على ثقافة الكتاب، ولو بأشكال ومستويات مختلفة، مما خلق تنوعاً في أساليب التعامل معه شكلاً ومضموناً. وتوصلت الدراسة إلى أن تنافس جل المكونات الاجتماعية لامتلاك الكتب حصل لدواعي مختلفة: تأكيداً لانتماءاتهم الاجتماعية والاقتصادية، ومشاركهم الثقافية والفكرية، فضلاً عن محاولات إسهام كل مكون في التأثير ثقافياً على القرار السياسي. وكيفما كان الحال فقد أنتج ذلك وعياً مبكراً بسلطة الكتاب الرمزية، كما أسهم في انفتاح جل هذه المكونات على بعضها، ولو أدى ذلك في بعض الأحيان إلى أن يقدم الكتاب قريباً لهذا الانفتاح عن طريق المصادرة والإحراق. وعلى الرغم من ذلك فإن فترات الحراك الثقافي تزامنت مع ارتفاع في مستوى رواج الكتاب، الذي تعرض في أحيان أخرى إلى ارتفاع أثمانه، مما حرم فئات أخرى من مصاحبه والإطلاع عليه، فحاولت خزانات الكتب ملء هذا الفراغ، وفتحت أبوابها للتثقيف والقراءة والمطالعة.

ورغم الإكراه الجغرافي، فقد أسهم الكتاب في خلق حراك فكري، وأصبح أداة تواصل وعاملاً أساسياً من بواعث حفظ الثقافة وإنمائها، فضلاً عن كونه وعاءاً للمعرفة والأفكار، ودعاماً صلبة للثقافة بالمجتمع المغربي الأندلسي، وبفضل أدواره التنموية المختلفة لاسيما على المستوى التعليمي: فقد وضع القواعد المركزية لمفهوم "الثقافة المكتوبة". وأبرزت التحولات الاجتماعية الجديدة تعميم فعل القراءة فلم تعد حكراً على خاصة المجتمع بل انتشرت داخله ولو بشكل محدود، مع ما رافق ذلك من منافسة كبيرة بين ثقافة الموروث الشفهي ومتطلبات المرحلة الجديدة بما استوجبه من إبراز للشخصية المغربية والأندلسية في مجال التأليف والإبداع العلمي في جل مناحي المعرفة الشرعية والطبيعية، والعمل على نشر هذه المعرفة وفق متطلبات السوق ورغبات بعض قوى المعارضة وتوجيه السلطة الحاكمة بما يخدم أغراضها وأهدافها السياسية.

وبناء على النتائج السابقة جرى تتبع مكانة الكتاب في المجال التربوي/ التعليمي، واتضح أنه كان حاجة مجتمعية ماسة لكونه أصبح جزءاً أساسياً من أساليب القراءة والتعليم، لاسيما في المراحل الوسطى والمتأخرة من التحصيل الدراسي، ونشط التعامل به بفعل الحوافز التعليمية على مستوى القراءة ونشر المعرفة الكتابية ببناء المدارس وإنشاء خزانات الكتب الخاصة منها والعامّة، تلبية للحاجة الوجدانية والثقافية لفعل القراءة، فضلاً عن إسهام عمليات صناعة الورق والنسخ والتجليد والزخرفة والكتابة والتأليف وغيرها في العملية الاقتصادية، وذلك بتحول الكتاب إلى مظهر اقتصادي واجتماعي تبلور كأداة للتفاخر والمباهاة.

واستطاع الكتاب كأداة تثقيفية فكرية أن يلهم جل البنى الاجتماعية قوة على الانفتاح على الثقافة المكتوبة، فقد استطاع أن يتجاوز حدود المكان والزمن ليفتح آفاقاً من التواصل بين المغرب والأندلس من جهة، وبينهما والمشرق الإسلامي من جهة ثانية، كما

كل ذلك أسهم بطريقة أو بأخرى في جعل الكتاب خلال الفترة المدروسة الأقدر على خلق ثقافة تواصل جديدة ونقل الأفكار ونشر الوعي. وعلى الرغم من انتهاء البحث إلى أن رواج الكتب واتساع استعمالها لم يُنه وظيفة المشافهة، فقد خلصنا إلى أنه بفضل ظهور "كتب المختصرات والأراجز" على الخصوص، فضلاً عن ظهور الزوايا وإنشاء المدارس خلال القرنين ٧ و٨هـ/ ١٣-١٤م، قلل من أهمية الرحلة البعيدة في طلب العلم ولقاء المشايخ، فأصبحت ثقافتا المشافهة والكتابة تسيران جنباً إلى جنب مع احتفاظ كل واحدة منهما بخصوصيتها، مع الأخذ بعين الاعتبار الموقع المتقدم الذي حظيت به ثقافة الكتابة، نظراً لجاذبيتها في مجال توثيق المعطيات والأخبار، على عكس المشافهة التي خضعت للتحريف والزيادة والنقصان.

وعلى صعيد آخر، وبعد رصد مظاهر تطور صناعة الورق - العنصر الأساسي في صناعة الوراقة - بالمغرب والأندلس خلال فترة الدراسة استنتجنا مدى "الازدهار" الذي عرفته من خلال المتابعة الدقيقة لمختلف مراحلها من تصنيع للورق والنسخ والتسفير والمتاجرة. وقد احتلت مجموعة من المدن مراكز أساسية لممارسة هذه المهنة كمراكش وفاس وسبتة، وشاطبة وقرطبة وإشبيلية وأميرية وبلنسية. وعلى ضوء هذه الدينامية وما أفرزته فترات الأمن العام ووفرة الإنتاج، كشفنا عن اتساع دائرة القراءة بفضل انتشار دور النسخ، فزادت العناية باقتناء الكتب واستنساخها ووقفها.

وعلاوة على ذلك: أوضح هذا العمل أن مهنة الوراقة ارتبطت بفئة اجتماعية، حرصت على تلبية رغبات روادها، فشكّلت بذلك عنصراً جديداً داخل المجتمع أسهم في تفعيل آليات التغير التي طرأت على المجتمع المغربي والأندلسي، بانتقاله من مجتمع المشافهة، إلى مجتمع الكتابة والتدوين وحفظ المعرفة. ولم تستثن حركية مهنة الوراقة عن الدينامية المجتمعية العامة، فقد عكست التحولات الداخلية بها مجموعة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تأثرت بالمنعطفات السياسية التي مرّ منها المجتمع المغربي الأندلسي، وذلك بتذبذب مسار تطورها بين فترات السلم والفتن. ولعل الأمن العام كان محفزاً للإبداع والابتكار فيها، وتوسيع دائرة تأثيرها، فشكّلت بذلك مظهرًا من مظاهر التغير الذي طرأ بالمغرب والأندلس اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً، لاسيما خلال القرن ٦هـ/ ١٢م، وذلك بما شهده من توفر لأدوات العمل الضرورية لتنشيطها مثل الورق والأقلام والمحابر والمداد، دون إنكار تأثرها أيضاً بالمنافسة الخارجية التي فرضت عليها شروط جديدة للعمل.

وفي الاتجاه ذاته خلصنا إلى أن حرفة الوراقة عكست بكل مستوياتها توازنات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية مختلفة، وأبرزت علاقات طارئة من خلال الوضعية الجديدة لفعل القراءة، فبدأت المنافسة حول احتكار سوق منتجاتها في محاولات لتوجيهها بين جل البنى الاجتماعية. وعلى الرغم من نجاح السلطات القائمة بالتحكم في دواليب الاقتصاد، فقد سعت في محاولات ترويض وتطويع المجتمع. وبدأ لنا في المقابل أن الوضعية الجديدة التي ساهمت في إنشائها ثقافة الكتاب، قدمت نماذج مخالفة لرغبات وتوجهات السلطة، وتمكنت من خلق نماذجها الفكرية والثقافية



خلال القرن ٨هـ / ١٤م مع ركود اقتصادي، فارتبطت أنشطتهم الاقتصادية بمجالات محدودة ضيقة، وانعكس ذلك على انكماش ثقافتهم، بالعناية بكتب التعليقات والمختصرات، على غرار ما ساد بالمنطقة عامة.

واستناداً إلى الخلاصات السابقة توصلنا إلى أن جل الفئات الاجتماعية سعت في إطار الحراك الثقافي إلى وضع بصماتها للتمكن من التأثير في المستويات الثقافية والفكرية والسياسية، وغلف ذلك بصراع سياسي مرير بين قوى المعارضة والسلطة على رهان التحكم في الحصون الثقافية والفكرية المجسدة في وسائل التعبير لاسيما الكتب، وسعت السلطة وبذلت ما في وسعها لتوجيه وتوزيع المنتجات الفكرية، بأساليب الإغراء أحياناً والتهديد والمصادرة أحياناً أخرى، وبالمقابل سعت المعارضة إلى محاولة الاستفادة من الواقع القائم رغم الإكراهات التي واجهتها، فاختلقت طرق جديدة من الترميم والرمزية في الكتابة والنشر.

وعند توقفه عند الأدوار التي قامت بها الخزانات العامة، استنتج البحث دورها الريادي في التخفيف من حدة التفاوت الثقافي والاجتماعي لاسيما بالمدن، إذ استفاد عدد كبير من الطلبة منها، وهيأت لهم أرضية مساعدة للبحث والتثقيف، وناقست مثلثها من المكتبات الخاصة سواء الملحقة بالقصور أو التي في ملكية الأفراد، وأسهمت في تشغيل يد عاملة لا يستهان بها من نظار ونساخين ومسفرين وغيرهم، فأثر ذلك في التطور الذي طرأ على خزانات الكتب بالمغرب والأندلس، وعد انعكاساً أميناً للحركة الانسيابية للكتاب داخل المجتمع، والاهتمام بشأنه من قبل جل المكونات الاجتماعية لاسيما في المرحلة الثانية من عمر الدولة بالتعبير الخلدوني.

وعلى صعيد الانعكاسات الذهنية للكتاب ونظرة المجتمع إليه، كشفت الدراسة عمّا حظيت به ثقافة الكتاب في ذهنية العوام من مكانة سواء في الاتجاه الإيجابي الساعي إلى اكتساب المعرفة ونشر الوعي، أو في الاتجاه السلبي الذي أظهر ثقافة الكتاب كإحدى معاول الهدم الحضارية، التي برزت في العديد من الاستعمالات الخرافية. وأياً كان مستوى التأثير، فإن ثقافة الكتاب أسست لنفسها قاعدة اجتماعية، وامتدت أواصر العلاقة بين الكتاب والعوام، على الرغم من المشاغل الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية التي تصدرت الكثير من اهتماماتهم اليومية.

كما قام الكتاب بأدوار ريادية في تشكيل ذهنية الخاصة، التي حرصت على الالتزام بكل مظاهر التميز، وبما رسخته العادات والتقاليد من إسهام في الحفاظ على المواقع الاجتماعية، مما زاد من رغبة جل مكونات هذه الطبقة في المسارعة لمسيرة التحولات التي مست المجتمع على المستوى الثقافي والفكري، أو على الأقل التدرج بلبوس القراءة. لما فرضته من أشكال قيمية ثقافية وفكرية، كان للكتاب حضور قوي فيها.

ومن الجدير بالإشارة إلى: أن الرحلات المشرقية أسهمت في وصول الكثير من المصنفات ذات التوجه الصوفي الشعبي، وفي الوقت ذاته سمحت بولوج مصنفات التراث اليوناني التي ترجمت في بيت الحكمة ببغداد، إلى العدوتين لاسيما إلى الأندلس، من قبيل فلسفة أفلاطون وأرسطو، فضلاً عن كتب فلاسفة الإسلام بالمشرق

أضفى على الحركة الصوفية طابعاً خاصاً، رغم ما عرفته العلاقة بينهما في بادئ الأمر من فتور، فحل في أحيان كثيرة محل الشيخ في إطار العلاقة الروحية المباشرة التي جمعت بين الشيخ ومريديه، لاسيما منذ النصف الثاني من القرن ٧هـ / ١٣م، كما ركن إليه البعض باعتباره وسيلة من وسائل العيش عبر الاشتغال بالوراقة، وأسهم في لعب أدوار تواصلية لا يستهان بها، في إبراز الشخصية الاجتماعية والسياسية والدينية للصلحاء، عبر نشر ثقافة ومناقب الأولياء ومزاحمة كتب الفقهاء، سواء بأساليب الترهيب أو الترغيب التي تضمنتها الكرامة الصوفية المودعة في بطون كتب المناقب.

وخلص البحث أيضاً إلى أن الكتاب شكل أحد اهتمامات أبناء البيوت العلمية، التي ارتبطت بالعلم والقراءة أكثر من غيرها، وهى لها أرضية خصبة لتداول العلم بين أفرادها، وأصبح جزءاً من معمار منازلها، بإنشائها للمكتبات الخاصة، والمغالاة في أثمان الكتب، نظراً لاعتبارات مصلحية نفعية، تبرز أساساً في كونه أداة للمعرفة التي أسهمت في تبوؤهم مناصب إدارية هامة، ورمزاً للثروة والجاه. وسعيًا للكشف عن علاقة باقي الفئات الاجتماعية بثقافة الكتاب، لم تتردد الدراسة في ملاحقة مكانته لدى هذه الفئات، فبخصوص علاقة المرأة بالكتاب فقد راهنت المرأة على النهل من الثقافة المكتوبة، إذ أن الواقع الاجتماعي والاقتصادي للبعض من النساء هياً لهن إمكانات مختلفة، فأصبح حضورهن لافتاً في مجالات متعددة. وبالمثل لم تسعف أوضاع البعض الآخر منهن من مواكبة التحولات الثقافية فبقين رهائن لأوضاعهن الاقتصادية والاجتماعية وأسيرات للثقافة الذكورية السائدة.

أما الرقيق ففاضلوا بأساليب مختلفة لإبراز مواهبهم وطموحاتهم، رغم المكانة الدونية التي احتلوها داخل المجتمع، ومهما كان الأمر فلم تحل تلك النظرة التحقيرية للانتقال من مستوى القراءة إلى الكتابة والتأليف، ورغم طموح هذه الرغبات فلم تتحقق للكثير منهم إلا بعد اعتناق عالم الحرية. كما لم تحل الإعاقة البصرية للبعض من الإسهام في الشأنين الثقافي والفكري بشكل يتوافق مع وضعهم الصحي، فلم يمنهم ذلك من ملازمة الكتب والاستعانة ببعض لإقراءها، ورغم أن الجامع بينهم هو الاعتماد على الذاكرة في القراءة بالسماع، فقد عملوا بطرق مختلفة في محاولة لتوزيع الأدوار مع من حظوا بحاسة البصر ليتمكنوا من أخذ نصيبهم من القراءة، وليستمدوا معرفتهم العلمية من الثقافة المكتوبة الموثقة من جهة، وليسعوا إلى إبداء آرائهم ومواقفهم ومناقشتها والدفاع عنها من جهة ثانية.

وبالمثل تصدت الدراسة للعلاقة التي نسجتها الأقليات الدينية بثقافة الكتاب، واتضح رغم ندرة المادة العلمية تذبذب في علاقة المسيحيين بالدول التي حكمت المغرب والأندلس، إلا أن ذلك لم يضر فترات السلم العام التي اتسمت بانفتاح وتسامح مع الجاليات المسيحية، لاسيما في الفترات التي عرفت نوعاً من التشدد إزاء الكثير منهم، لاسيما خلال العهد المرابطي والموحدي، كما شهدت علاقة اليهود بالمجتمع المغربي الأندلسي فترات من المد والجزر، فلم تصل إلى الحد الذي فرض عليهم بالممالك النصرانية، حيث تم استغلالهم لاسيما في مجال الترجمة، وانتهت ثقافتهم إلى ما انتهت إليه الثقافة العربية الإسلامية بهذا المجال، حيث تزامن الركود الثقافي اليهودي



محدودًا في الزمان والمكان، وفوّت هذا الحصار الذي ضرب على بعض المصنفات التراكم الكمي للمعرفة العالمية بالعدوتين، الأمر الذي يزيد من مسؤولية البحث في تقصي آثار المفقود من خلال إشارات ما هو موجود، لتدارك الطمس الذي لحق تراثنا المكتوب، حتى لا يتحول التهاون إلى تواطؤ، بهدف إدراك عناصر الجدة والأصالة في الفكر المغربي الأندلسي لهذه المرحلة المفصلية في تاريخ العدوتين، ومن خلالها نتمكن من فهم الحاضر واستشراف المستقبل.

مثل مؤلفات الفارابي وابن سينا ورسائل إخوان الصفا، ومصنفات كبار المتكلمين مثل المعتزلة، مما حول التصوف عن مساره السابق بظهور تصوف ذي طابع فلسفي بالأندلس خاصة، بلغ ذروته خلال القرن ١٣هـ/ ١٣م. وبذلك يظهر الدور الريادي للكتاب في بروز مثل هذه الأفكار التي قعدت لنشوء ظاهرة التصوف ليس على المستوى الفكري فحسب بل كمكون اجتماعي، طبع تاريخ المغرب والأندلس بطابع خاص، وأسهم في صياغة جزء من ذهنيته.

وفي محاولة لطرق اتجاهات الكتابة والتأليف، خلصنا إلى أن دائرة التأليف اتسمت بالاتساع، وكثرت المصنفات سواء تلك التي ارتبطت بواقع الناس وحاولت معالجة بعض مشاكلهم المعيشية، ورنّت أحيانًا إلى التطلع لاستشراف مستقبلهم، أو تلك التي سكنت إلى مستوى علاقة القرب أو البعد من السلطة، مما أكسب مضامينها أبعادا سياسية وإيديولوجية. وأيًا كان مستوى هذا التأليف في ملامسة جوهر الإشكالات الاجتماعية والثقافية العامة المطروحة، فإن ما صنف - على كثرته - لم يستطع أن يؤسس للقراءة قيمة اعتبارية، أو يشكل وعيا اجتماعيا قادرا على أن يؤسس لمبادئ نهضة حضارية. ونعتقد أن مرد ذلك يرجع إلى التجزئ الذي مس التحولات العامة بمجال الدراسة؛ إذ لم تتراكم الوسائل الكامنة لإحداث تحول جذري عام في كل المستويات بالمنطقة، على عكس التغيرات العامة التي مست أوروبا، ومهدت لبناء النهضة منذ نهاية القرن ٨هـ/ ١٤م، الأمر الذي أثار انتباه بعض أعلام هذا القرن مثل ابن خلدون الذي عوّل على إعادة الاعتبار لعامل الرحلة ولقاء المشايخ لتدارك الركود الذي بدأ ينخر ثقافة قراءة الكتب التي تم التعويل فيها على الجانب الكمي عوض الارتكان إلى نوعية المعارف المكتوبة.

وفي الاتجاه ذاته لم نقل من عمق التأثيرات المختلفة على فعلي القراءة والكتابة، وهذا ما تجلّى في تحول بعض مؤلفات الفترة المدروسة إلى نقمة على مؤلفيها؛ حيث تعرض بعضهم للتنكيل والتكيب بسبب أفكارهم الميثوقة في صفحات كتبهم، لأسباب قد تتعلق بحملات "تطهيرية" من وجهة نظر السلطات الحاكمة. واتخذنا نماذج لذلك من خلال محاربة كتب أبي حامد الغزالي خلال عهد علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي (٥٠٠-٥٣٨هـ/ ١١٠٦-١١٤٣م)، وحملة محاربة كتب الفروع والفلسفة في عهد يعقوب المنصور الموحد (٥٨٠-٥٩٦هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م). ولعل من الخلاصات الهامة في هذا الصدد أن تلك الحملات "المخزنية" قللت من انتشار بعض المعارف لكن دون أن تستطع استئصالها نهائيا، بل كانت في أحيان كثيرة تقوم بدعاية غير مباشرة لتلك الكتب المراد حظرها بغير وعي منها كما حدث مع كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي.

ومن جهة أخرى؛ فقد كان إقبال بعض الفئات الاجتماعية على بعض المعارف مثل الفقه ومسانله يرجع لاعتبارات نفعية بدرجة كبيرة، لأنه يعتبر أسهل طريق في التسلق الاجتماعي، كما تُظهر العديد من الوصايا والتوجيهات التي قدمها بعض الفقهاء لأبنائهم وتلامذتهم. ورغم المآزق البنيوي الناتج عن مصادرة الكتب، والذي جعل من الحرق والإتلاف والحلف بالأيمان آليات تكشف عن عمق الظاهرة وتعقدها، فإن هذه القوى لم تتوالد ولم تعد قادرة على إنتاج ذاتها في الممارسة الفعلية داخل المجتمع، لذلك كان فعلها